بيروت عاصمة عالمية للكتاب
2009

محمد علي فرحات

كتاب الإقامة

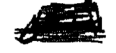


دار النهضة العربية


كتاب الإقامة

محمد علي فرحات

كتاب الإقامة



الرقم : 4682
اسم الكتاب : كتاب الإقامة
المؤلف : محمد علي فرحات
الطبعة الأولى: 2009


دار النهضة العربية
بيروت ـ لبنان

الزيدانية ـ بناية كريدية ـ الطابق الثاني
تلفون: 736093/ 743167/ 743166 ـ1ـ 961 +
فاكس: 736071/ 735295 ـ1ـ 961+
ص.ب 0749 ـ 11 رياض الصلح
بيروت 072060 ـ 11 لبنان
بريد الكتروني: e-mail:darnahda@cyberia.net.lb

الموزع الحصري في مصر: آفاق للنشر والتوزيع
75 شارع القصر العيني، القاهرة ـ مصر
تليفون : 3811 - 2795 - 202 +
فاكس : 4633 - 2795 - 202 +
بريد إلكتروني :afaqbooks@yahoo.com

آفاق
للنشر والتوزيع

ISBN 978-614-402-046-3

إلى

نجلاء

الرعويّات

(كم أدمانا شوكك، ونحن نلعب.
مزَّقَ ثيابنا فودَدْنا لو تحترقين، وتساءلنا
لماذا أنبتك الله في واد أخضر؟
أيتها العوسجة، خلقت لتُدمي،
لكنك خلقتِ أيضاً لرحمةٍ واحدة: حين
كانت السماء صمتاً والجهات الأربع لا
تُعين، حميتِ الفارس الجميل، وكنتِ
له سلامًا.)

مَواليد

1- بخور مريم

«بخور مريم»، زهرة البراري، وَجْنَةُ المنحدرات، جارة الصخور البيضِ. مع الأزهار تأتي، وترحلُ عندما تقسو الشمس على حرائر الأرَض وتمتص الرّواء. لكنها فريدة «بخور مريم»، تحني هامتها من خجلٍ حين تستعرض نفسَها الأزهارُ، تفتح ورقها وتنشر خطابَ الجمال.

فريدةٌ وعصيّة. فتاةُ ريفٍ ذاتُ عفاف. تلتفتُ أنتَ إليها، تتركُ الأزاهيرَ المتبرجاتِ إلى حجابِ «بخور مريم»، إلى الغلائل الزهرية تشي بوعدٍ مستحيل.

«بخور مريم» حجابٌ لا غيرُ. وإذْ تقطفها من عطفة الوادي وجوارِ الصخر، وتنزعُ عنها الغلائلَ، لا يبقى في يدك شيء.

عطر الأرض «بخور مريم» ووعد الجمال بلا وفاء.

2 – الدفلى

الدفلى شجر الساقية، عصبيّ، يشرب يشرب لا يترهّل. حسبُهُ أوراق لا تغطّي وعيدان كأنها البَنَان القاسي.

ولا فرق بين جذع وأطراف، فالقوام الأهيف سواء. يتطاول الدفلى فلا يبلغ قامة الفلاح، لكنه منتصبٌ دائماً، يتطلع إلى القمم المستحيلة. حظُّهُ الوادي، نعمةُ الظل وملتقى أنداء الصيف وسيول الشتاء، وركامٌ من الطمي الطريّ، مثلَ لبّادة عمّنا بائع الزيت.

صيف الدفلى فتوّةٌ، وأزهارٌ تتفتح حمراءَ، عطرُها يدوم سنة بتمامها، وشتاءُ الدفلى أوراقٌ متمزقة، كأنما نخرها السوس أو برزت في وجناتها الخضر بثورٌ تنذر ببشاعة.

الدفلى، هذا الأهيف الرشيق الطامح كما سكان الوديان، لا تضيره بشاعةُ الشتاء. يكفيه أنه ليس أمرَدَ كشجر التين، وهو الفتى في شتائه وبقية الفصول.

3 – إصبع زينب

يستحي. يختبئ بين الأعشاب. تراه ولا تراه. وحين تحظى باللقيا يدغدغك «إصبع زينب».

وزينب جميلة. زينب تعمل في الحقول، و«إصبع زينب» جميل ومجرَّح وقوي.

«إصبع زينب» يدغدغ. مع ذلك يبحث الأولاد عنه في

الحقول، يمضغونه، ويأتي القول انه عصبُ الأرض وباعثُ القوة في طين الجسد.

4 – الأقحوان

كثير. فوق السطوح الترابية. على البيادر. في حواشي الدروب.

كثير متناغم. عرس أبيض. سجادةُ الثلج تركها ورحل.

الأقحوان، وحده يتكرر ويفاجئ. نقيٌّ ونبيل. إذا مسّه الوحل يشعر بالإهانة.

لعبة الجمال هو الأقحوان واحتمالات المحبة.

كانت الجميلة تقطف أوراق الأقحوانة: يحبني، لا يحبني، يحبني، لا يحبني. وحين تخيب الجميلة، تظل تحاول مع الأقحوانات حتى تصل إلى «يحبني» فتفرح.

وكان يحبها قبل لعبة الأقحوانات ولا تعرف. ينتظر موسم القطاف ليكون لها دفء الشتاء وتكون له زهرة الثلج المتوهجة.

والأقحوانة زهرة الثلج، تحضر في عزّ الربيع، وحين ينذر الشتاء تبقى يابسةً صلبةً في كتاب الحب، وأبوها الثلج يطلّ من النافذة.

5 – نرجس

النرجس في غابتنا الصغيرة غيرُهُ في حوانيت الأزهار. لا ينتظرُ الأنفَ بل يجذبُهُ، يتواصل معه في الأريج الصباحي.

احترقت الغابة وبقي النرجس يطلعُ في الربيع، يطلُّ من البساط الأسود ويبحث عن قبعة خضراء.

بيدر النبي

ترابٌ أصفرُ مقوّى بالقش الأصفر. منبسِطٌ مفتوحٌ على الضوء. محطة للسهر في ليالي البدر التمام.

تينتان ومقام ذو قبة صغيرة، بيدر النبي.

تينتان. فوق كل واحدة عصفور، وآثار الحصاد على الأرض القاسية.

تينتان. كل تينة عالمان، واحد في الأغصان والآخر في الظل.

نتنقَّلُ في كنَف التينة. نلامس الثمرة لتنضج قبل الأوان، ونختار من الأغصان درّاجةٍ أو طائرة.

قبل الخريف يحتلُّ الأولاد التينة، وفي الخريف تحتلها العصافير. يمتلئ المكان بالعبق السكري، والمقام ذو القبة يشهد.

بيدر النبي حلقات. دبكة ورقص وقوّالون. والحلقات أولادٌ يتدربون على تسليات الكبار. تدرّبْنا وبقيتْ في النفس لمحات: كان

الولد يركض ثم فجأةً نهدٌ يتصدّر. حلقة الفتيات تكشف عن نهـدٍ وليدٍ. يدخل النهدُ في الرؤية، طراوتُهُ في النفس، ويحتقن الخدّان دماً. إنه تلويحة اللذة المبكرة.

آخر البَيدر

البيدرُ آخرُهُ، عندما ينسحب القرويون بقمحهم وقشّهم إلى البيوت. بقايا العطاء في البيدر، تأتي العصافيرُ والنحلُ، وتأتي الخرافُ لتودّع آخر المراعي.

في آخر البيدر فرس وبقرات وخراف، عصافير عند قوائم الحيوانات.

وفي آخر البيدر سماء رمادية، وهواء يقرص أجسادَ الأولاد.

في آخره، أحزان العاشق النائم على وعد الربيع.

التّين

المنتهى عسلٌ في وعاء القش، في مؤونة الشتاء، في منفى الجسد.

والمبتدأ أزرار خضراء في الربيع النديّ.

والبَيْنُ هو التين.

يستعجله الأولاد اللاعبون في الشجرة الكبيرة، ثم يأتي كثيراً حتى الإملال: زينة خضراء على المائدة، أو شرائح تحت الشمس على فراش القش الأصفر.

التينُ وردةُ المسْطاح. سجادة سكرية تمتصها الشمس. ملتقى النحل والعصافير وموضع صيد الدبّور.

زينة السِّلال، التينُ. حلوى التلاميذ في المدرسة البعيدة، والتين ذاكرة.

الذّرة

تنعقد الشمسُ حبّاتٍ على أذرع النبتة. تلتقي شموسُ النباتِ بشمسِ السماء فتأتي ألوان، أحمرُ وأصفرُ وليلكيٌّ، وأسوَدُ كالشّامةِ على خدّ الشقراء.

على السطوح يضربون الذُّرةَ المحبوسةَ في الأكياسِ، ينثرونَ الحَبَّ من خلالِ المِزَقِ، ويتصاعد ريشٌ نباتيٌ في الفضاء.

الذُّرةُ للبيت، وبوشارٌ للجيران.

الهُوّة

كُوَّةٌ في الأرض عندَ فم الوادي. نافذةٌ صخريّةٌ إلى باطن الأرضِ حيث يُسمعُ القاعُ العميقُ، يصطدم الحجر الهابطُ بما يشبهُ الماء.

نافذةُ الخوف هي الهُوَّة.

قيل إن أشباح الليل تدخلها، وقيل إنها ملجأ الأجداد في الحروب الخوالي.

نرمي الحجرَ في الهُوَّةِ. يرمون القنبلة على القرية. نرمي لنلعب ويرمون لنموت.

تسقط القرية في «الهوّة»، ونسقطُ في هوَّةِ الأفكار.

ذئب

عواؤهُ من الوادي ولقاؤه مفاجآت العَطفات.

نار في عينيه، وفريسته إذا نجتْ يخطفها من حظائر البيوت.

ذئبٌ يخافُهُ الرجال، وتنتصر عليه امرأة حامل حاسرة الرأس، حين يراها يهربُ أبعدَ ما يستطيع.

الذئب يخاف تكدير الأمومة، والأمهات يحرسنَ القرية من الذئاب.

ملح السَّنَابل

شمس مختلفة في ربيع ناضج. سنابل صفراء هي المدى، وشجرات قليلة هنا وهناك، محطات للنظر ولهندسة اللوحة.

حمارٌ وثلاثُ بقرات وظلٌّ شجرةِ الإجَّاص. أثناءَ المشْيِ صوتُ القشِّ وصوت الحيوانات تمضغ عشباً يودّع الطراوة.

الأصفر حقيقي، قشرة تخفي ناضجَ الداخل، والولد الخفيف فوقَ التلّةِ.

ولدٌ خفيف وحمار وثلاث بقرات وأصوات الحفيف والتكسّر. كان الهواء يولدُ. تحت الشجرة يولد. هو مِظلّةُ الرّطوبةِ والولد يطفُرُ من الزمانِ.

الشجرةُ وظلٌّ الشجرةِ، وعلى الأغصان عصافيرُ لاجئةٌ خرساء.

الولد وزوّادة الجبن المالح. قليلٌ من الماء ونَحْنَحَةُ البقرات. جزيرة الظلّ، وأصفرُ تمخرُهُ كائنات اعتادت الإِبحارَ في الفصول.

صُورة

طالما نظرَ إليها معلقةً على الحائط الطينيّ.

اختفت الصورة، كأنَّ يداً ساحرةً انتزعتها من المكان.

مات الشيخ. اختفت صورته. لم يبق أحدٌ يذكر لحيتَهُ المضيئةَ في ليلِ القرية.

هل كان الشيخُ جسداً أم هو زواجُ النور والظلِ؟ يكاد يدخل دائرة الشك، لولا الحقيقةُ أنه مات وأَنَّ له قبراً دارساً في ذلك المكان البعيد.

لا أحدَ يستحضرُ السهراتِ القديمة. كلام الشيخ يأتي دونما استدعاء. إنه الجواب حين تسألُ السَرائرُ، وهو حكمةُ المكان.

قيل إن شريراً حملَ الشيخَ عابراً النهرَ، فألقى به في السيل الجارف، وحين وصل الى الضفة الثانية رأى الشيخَ ينتظرُهُ هناك:

«لن يظلّلكَ سقف».

وعاش الشرير حياته من دون بيت ولا زوجة، وقيل إنه مات ولم يُدفن.

كلام الشيخ لا يردده اليومَ أحد: الشيخ في اللجّة وعلى الضفة الثانية. ضاع الناس عن المكان وضيعوه.

خطبة الليل

كَفَّ الداعيةُ عن الخطابةِ في النهار، فالناس لا يسمعون كلامه، بل يسمعون زقزقة العصافير وحفيف الأغصان وصوت الريح بين البيوت القديمة.

الضوء عدوّ الكلام. الضوء يعلن كلام الطبيعة، لذا بدأ الداعية يقيم خطبة الليل: سوادٌ في الجهاتِ الأربعِ. قنديل ناحلٌ عند ميمنةِ الداعية. والناسُ يجلسونَ في القاعة السوداءَ، في اللامكان.

الداعية يصعّد الكلام، يزرعُ السامعين في أمكنةِ الماضي، أمكنةِ الكلام.

وفي خطبة الليل تتوحد الإقامةُ والغربةُ، البيتُ الحجريُّ المكين وبيتُ الفكرة.

خطبة الليل يمحوها نهار الطبيعة.

عيُونُ البحْر

تعود العائلات الى المدينة آخر الصيف. تتجمع العائلات لتسافر في البوسطة، وسفَرها في الليل لكثرة الركّاب ولتفادي دوريات الدرك.

يشاهد الأطفال السفن من نوافذ البوسطة، عيونَ البحر البيضاء تنتظر من يغلق أجفانَها لتنام. يتذكر الأطفال كلام أجدادهم عن البحر، عن السفن الهرمة تحمل الشبان الى بعيد.

لعل شبان الزمن الماضي غرقوا، وها هم يطلُّون من عيون البحر في الليل، ينظرون الى شبح الجبل حيث أطياف ماضيهم.

عاشق

لم يكن عاشقَ فتاة معيّنة، كان عاشقاً فحسب، عاشقاً مقبولاً، يقتحم السهرات الخاصة كواحد من أهل البيت. كان العاشق عمومياً، ولم تكن له معشوقة معينة.

الصبايا يرافقنه، يتزوجن، ليرافقَ فتياتٍ جديدات.

عاشق... تلك هي شخصيته. يعلن عن جمال هذه وتلك. لا ينزعج من إعلانه أحد، ويُقْدِم الشبّانُ على الزواج براحة ضمير. انه العاشق المُؤْتَمَن حتى يبلغَ الشيخوخة فيرافق العجائز، رِفقةَ الذاكرةِ والحكمةِ والمزاح الأبيض.

التحصيلدار

يخرج «التحصيلدار»(*) من الصورة الى ساحة الدار. يجلس على كَنبةٍ من طراز لويس الخامس عشر. الى جانبه الكاتب يكتب على طاولةٍ قصيرة ويجلس على مسند محشوّ بالقش.

طربوش قانٍ. وجه مستدير. عينان تنظران الى ما هو أدنى. أنف قصير. شاربان معقوفان مطليان بالشمع، وذقن تتوسطها حفرة سوداء.

ينظرُ «التحصيلدار» إلى الفلاحين. يحاور في مقدار الضريبة. يعينها وفق مهارة الكلام أو الإيماءات أو حال الطقس.

(*) «التحصيلدار» جامع الضرائب، والكلمة تركية.

بعد جباية الضريبة، يجلس «التحصيلدار» إلى المائدة، ثم يتقبل الهدايا بيضاً وطيوراً وأشغالاً يدوية، ويعود «التحصيلدار» إلى الصورة.

الجليلاتي

يأتي الجليلاتي إلى قريتنا فيقيم أسبوعاً لتلبسَ الحميرُ حلّةً جديدة. الجليلاتي وحمارُهُ المريض وكمياتُ القش والقماش التافه والأمراس. على مصطبة بيت الناطور، يعمل طوال النهار وينام طوال الليل ويتقبّل مشاكساتِ الأولاد في كلّ حين.

يأكل الجليلاتي لحماً قديداً. يشربُ مَصْلَ اللبن ويغنّي أغانيَ تركيّة. يعنّف الأولاد ويرأف بحماره المريض.

مهنتُهُ أناقةُ الحمير، ومع الجليلاتي يتكامل مشهد القروي في المناسبات:

للرجل طربوش وصِدارٌ مقصّبٌ وسروالٌ مدروزٌ بالأصفر.

للحمار جِلالٌ مزيّنٌ بالقماش الملوّن.

والرجل والحمار فوق سجّادة الربيع.

كيف

كيف العجوز في بيته غريب، يحمل زمنه بيتاً في بيتِ الحاضر. يتنقّل بين الشرفةِ والشبّاك.

كيف يغادر العجوز عمره، لا يعود.

يبستِ الدّالية القديمة، والعناقيدُ أكفٌّ محروقةٌ في سماءٍ بليدة.

كيف يجتاز الأبناء فتوّتهم إلى غربة موعودة.

كيف يركضون فوق الخرائط، والزمن يركض حتى نهاية الرأس.

لَماذا

لماذا عندما نحبُّ لا يقبلوننا؟

لماذا تضحك الوديان، تسخرُ من الرصاص والقذائف؟

لماذا نُصاب بعدوى القناعة. نكتفي بمجرد البقاء، ونحلم أن نُدفنَ في أرضنا.

شتات

كانت دوحةٌ مكينةٌ في الأرض
تفرّعتْ في العُلى أماليدَ وأوراقاً.
وجاء خريف،
يهبُّ عاصفاتٍ من كل صوب.
يسقطُ الورقُ عن أمّهِ قسراً
وتطوّح به الريح في الجهات.
يلملمُ الورقُ المذعورُ نفْسَهُ.
ويتجمّع بعضاً لبعض ليدفئَ قلبَه،
فتأتي ريحٌ عاتيةٌ تطوّحُ به ثانيةً
تنشُرُهُ في أطرافِ الأرض.
يَذْوي الورقُ في غرباتِهِ وحيداً ويتفتّت في التراب، تحت شمس الله الساكتة.

الإقامة

اللافتة

لم تنقذك اللافتةُ في ساعة التخلّي. كان الناس سهمين، كلٌّ إلى جهةٍ يُسرعُ، وكُنْتَ تحمل لافتةَ التوسط واللقاء.

لا محلَّ للعقلاء في ساعة الجنون. قالوا إنّك جُننتَ وأنت تنادي بيروت لبيروت، يداً هنا ويداً هناك.

قُطعتْ يداك... رأسُ لبنانَ رأسُكَ في مكان العبور المستحيل، واللافتةُ حطمها الركام.

تمرين

جسدٌ يمشي. جسد ولم يمت بعد. يحضر في الوخز. في أوجاع ليلة الأحد. جسد واحد. كتلة متراصة. تكاد اليدان تلتصقان في أدنى الكتف. فخذان جامدان في سروال يمشي. الجسد الكل. هل العينان تنظران؟ الريح في الشعر، تلامس جلد الوجه وزغب الأذنين. الجسد المنسي عند ركام الشهداء. جسد بلا تفاصيل. لشهادة الصدفة. جسد يتمرن ليكون جثة.

جسد مرصوص بلا مفاصل. ليس رقصاً، لحمٌ ودمٌ وعظامٌ وماء. (كان) الجسدُ المنسيُّ الهمسُ الشجَنُ الفرحُ البعيد. (صار) الجسدُ الكتلةُ صراخُ مكبراتِ الصوتِ الفجيعةُ والفرحُ المنسيُّ إلى الأبد.

سعي

سنوات وهو ينتظر وطنه عند شاطئ البحر أو عند تخوم الصحراء. ينتظر ولا يسعى، بل إنه يسعى في عذاب الانتظار واللحظات المطاطة. قالوا انه يريد المواطنة من دون تعب ويعتبرها إرثاً لا أكثر.

رأى مرة أناسا يسعون، وأخبروه بعد العودة أنهم تاهوا في البحر أو في الصحراء وما امتلكوا بوصلة. وبوصلة الحب حطمتها الأحزان واختلاف الطقوس. وأخبروه انهم لم يجدوا وطناً، أو وجدوا فإذا هو غير وطنهم.

ازداد عدد الذين ينتظرون الوطن وقلّ عدد الساعين، وكثرت في الأسواق البوصلات المزورة، تضلل الساعي إذا سعى.

قبعة ورأس

الكلامُ قبّعةٌ فوق الرأس. الكلام ليس رأساً، ويمكن أن نخلعَ القبعةَ فيبقى الرأس.

البعضُ لكثرة ما لبسَ قبعة الكلام نسيَ رأسه. الرأسُ والقبعة توحّدا، وصار الكلام الآتي من القبعة كأنه صاعدٌ من الرأس، من الشرايين وتلافيف الدماغ. البعض انخلعت قبعته فانخلع رأسه، والبعض الآخر خلع قبعته فانفتح رأسه على الفضاء. صار رأسه منطاداً يعلو فوق اليابسة والبحر ويشرف على جهات ومناخات.

في زمن تنخلع فيه القبعات الملونة، تسطع الشمس على رؤوس عارية فتوحد الألوان.

بعضهم خلع قبعته، والبعض الآخر يمسك بقبعته يثبتها على رأسه، فلا يستوي عيشه بلا قبعة.

المَطْهر

رأيت بيتاً مدمراً. وكنت رأيت بيتاً مدمراً ذكرني ببيت مدمر، هو الآخر أيتقظ ذاكرتي على بيوت مدمرة. وكنت أبني بيتاً ولا أزال وسأظل أبنيه وقتاً طويلاً. وكلما تقدمت في البناء ازداد خوفي عليه، لأنه ليس أقوى ولا أجمل ولا أبعد من بيوت دُمّرت بعد تمام بنائها.

ورأيت في ما يرى الرائي أن زمن التدمير انقضى، وأن حاكماً مزاجياً جمع الذين تسببوا بتدمير لبنان منذ العام ١٩٧٥ وحكم بأن يكونوا بنائين. ونظرت بفرح إلى المشهد: باعة الكلام القاتل وباعة السلاح ومساعدوهم وزبائنهم يبنون بيوتاً. يضعون الحجر فوق الحجر، ويخلطون الرمل والحصى والاسمنت والماء، ويتعبون تعباً جميلاً، ومن تنفسهم المنهك تخرج الاحتدامات المؤذية فيتطهرون.

حين يجتاز المتسببون مَطْهَرَ البناء يرجعون إلى المجتمع راضين مرضيين، ويدخلون في جنته.

الرمزية العربية

ليست اختياراً فنياً أو مدرسة أدبية، إنها هي تدبيرٌ للمحافظة على الجسد. شيءٌ ما يشبهُ الخبز والماء، طريقةٌ لعبور شارع مزدحم بالمتفجرات.

قولٌ لا يقول شيئاً. حديثٌ لساعة أو ساعتين بلا معنى، أو للمداورة على معنى. ويصل بك الأمرُ إلى الشفقةِ على من يكتبون القولَ المكرور، خصوصاً على مَنْ يذيعونه. وتكاد تقول إن الاذاعات تبدل مذيعيها كما يبدل ابن الأغنياء سياراته.

الرمزية العربية ظاهرة عصرنا. يدخل في كنفها الناسُ طائعين أو منساقين، ثم لا يلبثون أن يصبحوا جزءاً من نسيج الكلام الرمزي، ينكرون وجود حقيقة راسخة، فالحقيقة هي القول، وتتبدّل وفق تبدّلات القول.

مع الرمزية العربية تصبح الكائنات كلاماً مركّباً من حروف، كائنات تتبدل بحسب تركيب الجملة. من يتكلم جيداً يعِشْ. والنتيجة موت النقد وانطفاء الابداع.

خلود

الموت نعمة حضارية. يموت جيل فيخلفه جيل. الحي يأخذ من قِيَمِ الميت ما يناسب ويترك ما تبقّى للذكرى.

لكننا في الشرق شعوب خالدة. لا أحد يموت، والمراحل التاريخية مغطّاة بالقشّ.

في الحدث الكبير يتفجّر الماضي. في المعركة الواحدة ظلالُ معارك غابرة. كل شيء خالدٌ في مكانه، نقمة حضاريّة.

الأمكنَة

تتكرر الأمكنةُ مرتين، مرةً في حقيقتها الثابتة، حيث تكون بناءً ونباتاً وظلالاً، ومرةً في حقيقتها المتحركة، حين ترحل في نفوس من يرحلون.

والأمكنةُ عزيزةٌ في بلادنا، بلادِ الهجراتِ القسرية والهجراتِ الاختيارية.

نحملُ الأمكنة في الحنايا، زهرةَ المداخل، حنايا البيت ودفء الإقامة، مُنحنى الشارع حيث تُشرَّعُ النوافذُ وتُوصدُ النوافذ، وحيث يتجمع الفتيانُ يتفتَّحون بالحوار الطويل.

الأمكنة نحملها زاداً وحيداً في زمن الهجرات، في الحرب التي تقسم العمر عُمرين. نحملُ المكان إلى العُمرِ الجديد فتتصادمُ الأمكنةُ في نفوسنا.

كلٌ يبحث عن المكان فيجده في قلبه. هكذا أوطان الشرقيين معانٍ مجردة، والأمكنةُ إعلان غُربة.

مكان

مكان واحد يعبُقُ تحت شمس متلاحقة.
مكان حُبِّكَ الأول، حين تكتشفُ متأخّراً أنه كان حباً.

نسيج

الإقامة صمتٌ والاغترابُ ثرثرةٌ.

يتحدثون من دون حديثٍ في صبحهم والمساء. يتحدثون في الكلام، يمشون على الحروف فيصلون إلى الياء ليبدأوا بألف جديدة تنتهي إلى ياء، ويستمرُّ التناسلُ المتكرر.

نسجوا من الكلام مكاناً، فلا أحدَ يعرف أين تتحرك رجلاه وأين يُحفر قبرهُ، لأن لا أحدَ يعرف أين وُلِدَ وتحتَ أيّةِ شجرةٍ راقبَ الشمسَ والظلالَ، أمسَكَ بالطّين وشعيرات النّبات.

أتكون الإقامةُ وثَناً والجماعةُ حطّمتْهُ في سيْرها نحو سماء الكلام؟

ابن الوردي

ابن الوردي تاجر عمومي، أي أنه يتاجر بالسِّلعِ المادية والمعنوية. والإقامةُ في نظره مكانُ انتاجٍ وليست ارتباطاً بقبور الأجداد وبيوت الأحفاد.

وابن الوردي التاجر، أموالُهُ منقولةٌ، وهو مستعد دائماً للرحيل. بيتُهُ مُستأْجَرٌ، والأثاثُ بسيطٌ لا يُؤْسَفُ عليه، والأبناء يتعلمون لغات عدة، والأجدادُ من التراب وإلى التراب، والأرض وطن واحد.

يربّي ابن الوردي أولاده من خلال سلوكه، ومن خلال شعره الحكمي:

جانبِ السُّلطانَ واحذرْ بطشَهُ
لا تُعَانِدْ مَنْ إذا قالَ فَعَلْ
حُبُّكَ الأوطانَ عجزٌ ظاهرٌ
فارتحلْ تَلْقَ عنِ الأهْلِ بَدَلْ(*)

(*) البيتان من قصيدة «نصيحة الأخوان» المعروفة بـ «لاميّة ابن الوردي»، وهو زين الدين عمر بن الوردي (1290 – 1384) ولد في معرّة النعمان وتوفي في حلب وعمل والياً على منبج. له ديوان شعر، وكتاب اختصر فيه تاريخ أبي الفداء.

الفرق

الفرق بين السلطة والمعارضة يكمن في اللغة. وحين يتكلم الطرفان لغة واحدة، فالحالُ أن سلطتين تتصارعان، والمعارضة لم تولد بعد.

معنى

تفقد الكلمةُ حكمتها بقدر ما يحميها السلاح. وتفقد الكلمة جدواها بقدْر ما يلوّنها الخوف. دائماً تنقدُ الكلمةُ...

كلمةٌ بلا جسدٍ تقتلُ الأجساد.

الطفلُ أجمل من الكلمة، والشارع أفضلُ من الرصاصة، والحياةُ أهمُّ من الموت.

سمَاء الجواب

انصاع الفتى للجواب واغتسل من الأسئلة، أخرجها حروفاً متشابكة من أذنيه ومن فمه. جلس في الصمت المطبق، في إيقاع الجواب الرتيب.

فتح الفتى خزائن أبويه، بدأ يرمي كتبَ الأسئلة، وما هو ذو ورق جيد باعه لصاحب الدكان... ثم اغتسل الفتى من غبار الكتب وغبار الأسئلة.

صار نظيفاً في بيت نظيف تحت سماء الجواب الواحد.

قال الرجل:

بيتي هنَاك

في أعقاب الجيوش، المدنيون يلتقطون المعلّبات ومِزَقَ الأرغفة وبقايا الكلمات. يستمع المدنيون إلى الخطب، يصفقون وترتسم على وجوههم أفراح الانتصار وأحزان الهزيمة. يشاهد المدنيون مدنيين آخرين. يلونون ميدان المعركة المحترق. يعطونه صورة شيء كان وطناً.

في أعقاب الجيوش أعمال لا تُنتج. عيشٌ ليوم واحد. أفكار تتبدل إلى عكسها. أمكنة يعلوها الغبار، ومعالم تتبدل إلى لا معالم.

في أعقاب الجيوش أفكار الجيوش. شيء يسمونه الطاعة، وآخر يدعى الوسيلة، وثالث يوصف بالتوجيه، ورابع بالمعنويات: الأفكار لا تنطلق من الرأس بل تأتي إليه. كل وافدة تلغي سابقتها،

وعلى كل رأس أن يكون جديداً، لا يتذكر ما فات.

المدنيون يصفّحون أجسادهم ويحفظون الأمكنة في الداخل.
كانت الحرب تقتلع في كل يوم جماعة. والحنين يسيلُ، يتلاطم. سَيْلٌ من هنا وآخر من هناك.

قال الرجل بيتي هناك خلف الحواجز، وقال الذي خلف الحواجز بيتي هناك خلف الحواجز. كانت الطفولةُ إقامةً فصارت طيراناً: طفلٌ يحبو في الجبال ويتعلم المشي على الشاطئ، ينام في مكان ويفتح عينيه على مكان آخر.

من يقدح زناد ذاكرته؟ من يمدّ يديه يتلمّس أمكنة صارت بعيدة؟ أشياءَ الحنين واللفتات، الخضرةَ الأولى للشجر والماء، الشكلَ الأول لجدار الحقل، رفرفة عصفور السقف، ابتسامة جارةٍ صارت في بلاد بعيدة.

إنها أعياد الأمكنة وأمراضها، حين يطلُعُ المكانُ من الرأس.
والمدنيون، شعب يدور به الزمان على أعمار مؤجَّلة.
إنها الحرب الطويلة، الخَبَلُ الجماعيّ الذي يهدم الأمكنة ويحفظ الذاكرةَ، لتحيا الأحقاد.

طار الديك

في الليل

صار المكان مستحيلا، أنكَره ساكنوهُ، غاب الجامع القديم، التعاطف، انحناءُ الرأس على الرأس.

ذكرى المكان ندمٌ، الجميعُ يكره الندم، لذا نطرد من الذاكرة، من الحلم، ذلك المكانَ المستحيل.

على السطحِ الإسمنتِ يُمضي الديك ليلته والصباحُ عيد.

طار الديكَ في الليل. دمُهُ شفقٌ، هو الغريبُ في الأزقّة المعتمة تفضحه فضّة النهار.

الولدُ في الشارع يلبس أفضل ثيابه، والديكُ أمام دكان. البائع يلتقط الديك الهارب، والولد لا يعترض، لا يطالب بديكه. يندم الولد حتى آخر العمر.

*

في المكان أبنيةٌ يملكها موظفون صغارٌ أو عمالٌ مهرَة. تبدو دائماً قَيْدَ الانجاز لا تتمُّ صورتُها.

أربعُ غرف في الطابق السفلي ومطبخٌ واحد. وفي غرفةٍ يسكنُ بائعُ البيض وأمُّهُ العجوز وأختُهُ الأرملةُ وأبناءُ الأخت.

يعود الفتى آخرَ الليل. الأمُّ جالسةٌ على العتبة الضيقة. الأُختُ تتذكرُ والأطفالُ يلعبونَ، ربما مع الجرذان.

كم هي السماءُ بعيدةٌ في الليل.

كم هي كثيرةٌ الثيابُ السوداءُ والعيونُ القناديل.

كان البشر يتركون أمكنتَهُمْ، يأتون من الجبال الجرد والسهول الحزينة، كلٌّ آتٍ يحمل أثَرَ الأصول ويحاولُ خلاصاً.

دورُ عبادةٍ وخَمّارات. سيدة إلى بيت زوجها وبغيٌّ إلى أي بيت. كلامٌ يصطدم بكلام، يسقطانِ بإيقاع معدني. صوت القطار في الموعد المحدد من الليل، حين يكفُّ الساكنُ في غرفة السطح عن القراءة، وبائعُ الكبد المشويّ عن النداء.

مكانٌ للمصادفة يجمعُ بشراً متنوعي الأصول. يكتشفون ما هو مشتركٌ، يذهبون بثياب النوم إلى صالة السينما، وعلى السطوح يقيمون حفلات خطابية بلا مترجمين.

*

يكون الخوفُ حين تعود العائلة من عملها، تلبس الهندامَ الرسميَّ وتجرُّ الحصان والعربةَ السوداء ذاتَ الحواشي المذهبة.

طريقُ البساتين لم تبقَ طريقَ البساتين. وحين كان الأخضرُ وحيداً كان البناء الوحيدُ والعائلةُ التي تمتهنُ دفن الموتى؛ الأبُ سائسٌ والابن الأكبرُ نجارٌ وسائرُ الأبناء منشدون.

عالمُ العائلة بستانٌ، لا يعرفون خارجَهُ إلا المآتم، يذهبون إليها مع تابوتٍ جديد بكامل قيافتهم، ويعودون منهكينَ من السير البطيء، من العبوس وروائح الأزهار.

عالمُهُمْ يضيق، تزحفُ الأبنية فتأكل الأخضرَ، يُصبحُ البناءُ البعيد قريباً، يشيحُ السكان بوجوههم حين تمرُّ العائلة.

البناءُ الوحيدُ بين عمارات شاهقة. تصطدمُ العمارات الجديدة، يتبادلُ ساكنوها النار:

أرزاق العائلةِ تكثُرُ، وحين يموتون يأتي رزقٌ لا يستطيعون الحصول عليه.

*

عاد من بلاد بعيدة حاملاً في رأسه كتباً وفي يديه شارات مبهمة. ذهب إلى المكان المستحيل وبدأ:

يبذر لغته فلا تنبُتُ. ثم تنبُتُ كائناتٍ حائرة.

كانَ الكلامُ مستقيماً فصار دائرياً. أخذ الرجل يقنعُ الناسَ بأنه تلميذٌ وهم معلموه، يعلمونَهُ ما يريدُ هوَ أنْ يرى فيهم.

حار الناس وعجزوا... خجل الناس من قولِ أنفسِهم لأنَّ قولَ النفس كلامٌ مستقيم والمطلوبُ دائرة.

الرَجلُ الرائدُ تَبِعَهُ رجالٌ يتصارعون في القول، وحين دَبَّتِ الحماسةُ انهارَ المكانُ وهجرَهُ ساكنوه.

الرجل في المنفى يغسلُ يديه ولا يندمْ. إنها تجربة وانقضت.

وأتباعه في المنافي لا يذكرون كلاماً سمعوه، لأن الكلام المستدير لا يصيبُ، أو يصيبُ نفسه.

طيور

قالت المعلمة للأطفال المذعورين: لا تخافوا. هناك طير كبير التصق بالسماء، والمسلحون يطلقون عليه النار.

فرِحَ الأطفالُ، كانت القذائفُ في أسماعهم تذكِّرُ بأيام العيد.

النسوةُ يركضنَ لإحضار الأطفال من المدرسة. حركة في الشارع، وموتٌ في الشارع.

نظرَ المسلحونَ إلى النسوة: لماذا لا يزال المدنيون مقيمين في ميدان الحرب؟

هل نستطيع احتمال حرب جديدة؟

– ليلة الحرب...

– ليلة الوجه إلى الوجه.

– لم اكتشف وجهكِ عن قرب.

- أقرأ وجهي في عينيك.
- وجهُكَ وجهان، واحدٌ لك والآخرُ لي.
- أنزلقُ على الملامس...
- نسيتُ الكلام وأتقنت الهمس.
- الهمس لغة ما قبل اللغة.
- الوطن لا يزال موجوداً.
- إنها المعجزة.
- من يخرج من الحرب حياً؟
- من يخرج من الحرب طاهراً؟
- يكتشف القتيلُ أنَّهُ ليس قتيلاً والقاتلُ أنه ليس قاتلاً. الأولُ يتحسسُ مقتلَهُ والثاني ضميرَه.
- يولد وطن عظيم.
- إذا كان التاريخ يستعين بالبيانات الحالية، فأيّ تاريخ سيقرأون؟
- أيها الصامتون، اكتبوا التاريخ وخبئوه في صدوركم، وأنقذوه في زمن الهجرات المتلاحقة، وسلّموه إلى أيدٍ أمينة.

- ذات يوم، أمٌّ وأبٌ وأطفالٌ وبابٌ موصد. مؤونةٌ قليلة وخوف. تسليات صغيرة، واستعادة ذكريات.

- ذات يوم يُفتحُ الباب على حدائق الورد، والشمسُ تحيّي الوجوه، وجوه الذين يبقون في المكان.

الأبيض

«الأبيض» كان أبيض الوجه مستديره، مكسواً بالصحة الخجول بما يكفي ليقال عند رَبْع القامة مائل إلى السمنة.

شعره تساقط مبكراً، وجبهته العريضة كسهل تغطيه الثلوج الأولى.

لا تسمع وقع خطواته لأنه ألف أحذية المطاط، فلا يتلاءم خطوه الساكن مع هيبة حضوره لدى من يراه للمرة الأولى.

ولطالما تساءل عارفوه: في أي المواقف يمكن أن يتكلم «الأبيض»؟ فهو حين يطلب الطعام يومئ أو يلهج بكلام هو إلى الهمس أقرب.

لا يعرف أحد من أين جاء. الذاكرة ترجع إلى الرؤية الأولى: «الأبيض» جالس على صخرة الشاطئ يتطلع نحو الأفق، وفي الليل تضمه غرفة خراب من بقايا بيروت البحرية. وبين النظرة إلى الأفق وساعات النوم يؤدي «الأبيض» خدمات إلى الجيران، مكتفياً بصحن من الطعام وحبة فاكهة، وبين الحين والآخر بألبسة قديمة يستر بها جسده.

الأحد عطلة «الأبيض»، لا يعرف أحد أين يمضيها. قال بعضهم إنه رآه مع امرأة عجوز يتحدثان رأساً إلى رأس كأنهما يستعيدان سراً دهرياً.

... يكبر أولاد الحي و«الأبيض» على حاله. تتعقد الهموم و«الأبيض» على بساطته. تكثر مشاغل السكان و«الأبيض» يحتفظ بوقته الرحب ويواصل تأملاته.

تتقارب الآفاق، تتآلف المسافات، تتوحد الهموم الصغيرة في بؤرة الهم الأكبر، تحتقن الوجوه كأنها تهمُّ بالصراخ، تتشنج الأجساد كأنها ستبدأ القفز الصعب... و«الأبيض» هادئ ينفّذ النظام الدهري لزمنه الخاص.

وحين قام ما يشبه القيامة، وكاد الإنسان يلهو عن أخوته وأمه وأبيه، أنبتت أرض بيروت باروداً وسماؤها قنابل، ولم يلتفت أحد إلى «الأبيض».

وإذ تهدأ الخواطر قليلاً ويتراسل الكلام بطيئاً وتتواصل العواطف ويبدأ كشف الزمن المنطوي، يلاحظ الجيران أن «الأبيض» اختفى. أين؟ لا أحد يدري، ويكاد البعض يشكك حتى بمجرد وجوده السابق.

صار «الأبيض» أسطورة، وفي ليالي البدر التمام، يبدو خياله على صخرة البحر يشرب حفنة مياه مالحة ويتأمل في الأفق حلكة السواد.

مدفع رمضان

مدفع رمضان ليس كالمدافع...

طلقته خير وشبع ورواء، وطلقاتها خراب وجوع وجدب.

لا أحد يدري ما إذا كان مدفع رمضان يُطلق هذه الأيام، وإذا أطلق فقليلٌ يستطيع سماعَهُ وسط دويّ المدافع.

هو علامة في الذاكرة، ومعه نسترجع الانتماء والطقوس والتميز عن الآخر ومحبة الآخر.

يسقط قرص الشمس في بحر بيروت، فيطلق المدفع العتيق في «تلة الخياط» طلقته الوحيدة محاطاً بالأوراق الملونة والأعلام. ومع الطلقة تحضر الموائد في البيوت: الماء المحلّى والفتوش وقمر الدين وسائر أصناف الطعام.

إلى مائدة رمضان يجلس الصائمون وغير الصائمين، فالطقس يجمع، والشاذ يحتفظ بشذوذه سراً «إذا ابتُليتم بالمعاصي

فاستتروا». يجتمع الشمل تحت خيمة الماضي، تُشعرُ كلَّ واحدٍ بدفء الانتماء، كما تُشعرُ الشاذَّ بشيءٍ يسمّونَهُ الإثم.

مدفع رمضان طَلْقَتُهُ فرحٌ، لمن تحمّل الصيام ولمن لم يصم. يتساوى الصائم وغير الصائم في الليل ويفترقان في النهار... ويبدأ التساوي مع طلقة المدفع.

كان زمان المخالفة وتحدي التقليد، واليومَ زمان انسحاب الماضي على الحاضر. يطرق مدفع رمضان أذنك، ويعيدُك من مسرى الفكر المتحدّي إلى وقفة الفكر المعترف.

- أسمعتَ مدفع الإفطار؟
- أعارَ صوته لمدافع الجوع.

هذا بدءُ حوار مفترض. حوارٌ مُتْرَفٌ لن يحصل. ولكن، عندما تغيب شمس النهار يطلق المدفع في كل بيت ماء وفتوشاً وقمر الدين.

صيف طويل

«الله رب الشتاء»... هكذا يقول أبو زين ويتردد قوله على شفاه القرويين في شهر تموز. يأتي «البيارتة» بأولادهم وسياراتهم فيحولون هدوء القرية إلى صخب. تنسحق تحت أقدام هؤلاء المتمدنين جمالاتُ الطبيعة وما رَسَم القرويون على التراب.

«الطسَّةُ» هي الهواية المشتركة لأولاد «البيارتة». تقليد مؤذٍ، قاومَهُ القرويون فانهزموا أمام «غزوات» يخطط لها تلاميذ أقفلت مدارسُهم أبوابها في الصيف ورمتْ بهم في أرض الناس. في الليل يبدأ «الطسُّ» على العنب. لا يرضى الفتى أن يأكل من رزق أهله، بل تقضي الشطارةُ بالتعدي على أرزاق الآخرين... وما أجملَهُ عنقودُ الحاج كامل معلقاً في الدالية ثم يتهاوى إلى الأرض.

لا تقتصر «الطسَّة» علىِ الأكل، فالبطون صغيرة وكرم على درب لا يكسر صاحبه. «المخططون» يذهبون في الطريق إلى آخره،

ويبدو آخرَ اللذّات تحطيمُ خيمة أو تكسيرُ خيال صحراء، أو عبثٌ بحائط العين حيث تخبّئ الحاجة مريم أمشاطَها ومرآتها والإبرةَ والخيطان.

«البيارتة» مرتاحون، ما هَمَّهم؟ يقول وديع، أُنظر إلى أيديهم البيضاء الناعمة، إلى أقدامهم طريّة لم ترَ الشمسَ، لم تثلمها الأشواكُ وأحجارُ الطريق. أُنظر إلى مشيتهم المستقيمة، كأنهم لم يعبروا حقلاً موحلاً.

هؤلاء «البيارتة» العجائبيون، لهم ألعابهم الغريبة، قبّعاتُهم الإفرنجيّة، وحَدُّ المكواة على ألبستهم غيرُ قابلٍ للزوال. يتطلعُ وديعُ فاغرَ العينين، يتصوّرُ أنَّ بيروت هي المطهرُ بين جحيم ونعيم. مَنْ ينزل اليها يكتسي جلدُهُ بالأبيض. تتهذّبُ لهجتُهُ وتنفتحُ أمامَهُ سُبُلُ العيش السهل.

حين يكبُرُ وديع سيذهبُ إلى المدينة كما فَعَلَ عمُّهُ. يعيشُ ويعيش. ما لَهُ وللقرية؟ يكفيه أن يأتيها أشهرَ الصيف، واحداً من بيارتة مهندمين فرحين.

ووديع ما زال صغيراً وبسيطاً، فليس «البيارتة» متشابهين، وصيفاً بعد آخر سيخالطهم ويعرفهم أصنافاً:

«بيارتة» عين المريسة شُطّارٌ مهندمون يتكلمون بلهجة أهل المدينة. أكثرهم يتقن الرقص ويرْطُنُ بلغاتٍ أجنبية وبأغانٍ صاخبة تُوجِعُ الرأس. شعارُهم «عاشر الغنيَّ تَغْنَ، وعاشر الفقيرَ تَبْقَ فقيراً». وعملاً بالشعار كانَ لكلٍّ منهم «خواجا». مدير الشركة أثناء الدوام،

وبعد الدوام هو «الخواجا» تشتري له حوائج البيت، وتهديه من مواسم القرية فيعطيك «فراطة» المئة ليرة، ثياباً ضاقتْ على الأولاد، أحذيةً من «موضةِ» السنة الماضية وفساتينَ شتويةً للستِّ المستورة... وتسمِّيه تحبُّباً «خواجتي».

الحياةُ ضَرْبةُ معلِّم، والأجانبُ أموالُهم بَحْر، خصوصاً الأميركان فصداقتهم مَكسب: فريد ملحم وأسعد واكد حصلا على «غرين كارد». صار كلٌّ منهما نصف أميركاني، وإذا مشيا معاً يعادلان جون كينيدي.

والعلْم؟ انه بضاعةُ الفقراء. آخرتُهُ وظيفة مثل الشحاذة، وابن عين المريسة يتدبر أمره. «بروفيه» تكفيه، والرزقةُ يجدها وتجدُهُ بين المرزوقين. يعرفُ جيداً حكاية عياش صالح مثلَ الكذب، مثل خاتم لبّيك: كان عياش نائماً على الشاطئ. رآه الأميركاني فبكى. عياش يشبه ابنه الوحيد الذي مات. استأذن الأميركاني أبا عياش واصطحب الفتى إلى أميركا. بعد سنوات صار عياش «جوني». أحلى من ممثلي هوليوود وأغنى من نجيب صالحة... ومثل حكاية عياش حكايات. ضربات. الدنيا واسعة ولا يعيش غير صاحب القلب القوي.

«البيارتة» ليسوا متشابهين. «بيارتة» عين المريسة أصليون وعجائبيون. ليسوا أبداً مثل «بيارتة» برج حمود. هؤلاء كأنهم لم ينزلوا إلى بيروت. لهجتهم مثل لهجة أهل القرية وأكثر. والذي يتفلسف يحكي باللغة الأرمنية. هَمُّهم لعب كرة القدم والحكي في السياسة.

وَعَدَ وديعٌ نفسه بالذهاب إلى المدينة عندما يكبر. ها قد أصبح وديع شاباً فرأى المدينة تعود إلى القرية... مُهجَّرون إلى قريتهم، مضى عليهم صيف وشتاء وصيف وشتاء وصيف وشتاء وصيف... اعتادوا. تعرَّفوا إلى بعضهم بعضاً. تضاءلت الفروق بين القرويين و«البيارتة».

أبو زين اعتصم بالصبر. الدنيا حرب، والجماعة خربت بيوتهم. «الله رب الشتاء» كان يقول. واليوم يردِّد مع الجميع: «الله رب القرية» ويصلّي نوافل حتى تُكتبَ لها السلامة.

عيد الاستقلال

كان لبنانُ، كيف يكونُ لبنانُ؟

المدائن المهدمة. السلاح. الذاكرة المحترقة. تجار العملة. التجار الصغار والتجار الكبار. غياب قيم العلم والعمل. الغباء والغباء والاستغباء. الفرد المهان والجماعة المهانة. السجن في صياغات الخطب المتكررة. مراكز الطوائف لدراسات الطوائف.

لبنان المطرود إلى الماضي. المطرود إلى ترجماته المتعددة. لعبةُ الأمم. لعبةُ شعبه. شعبُهُ اللعبة. لبنان البطولات يجرى محوها. بطولات البدء من صفر الآخرين.

الذين لا تعرفهم ولا يعرفونك، الصم والبكم. لبنان الخبطَ عشواء، اليضحكونَ منك واليضحكون عليك. لبنان الذي تخبئ نفسك، عقلك، جسدك. الذي نسيته. لا تستطيع جولةً لتستعيده. لبنان أوطان الكلام. ترسانات الكلام الحديد. لبنان الثقلاء. الماضي

الذي لا يعود واحتفالات الماضي.

لبنان تلاميذ المدارس بلا أعلام. المدارسُ ترفع الصور. الصورُ العابسة والضاحكة. الصور تتغامز أو تتقاتل. لبنان الأولاد لا يفهمونه. وطنٌ بلا قوام.

لبنان المعتوهون. الجواسيس. المهرِّبون. المخاتلون. الكذابون. المصدّقون. غيرُ المصدّقين. الجاهلون. العارفون. المصفقون للقوي. الشتّامون للضعيف. الهاتفون لمن يأتي. الراذلون لمن يرحل. لبنانُ الأبرياء. المدافعون. الفدائيون بلا لغة. لغةُ الدم التي تُنسى سريعاً. لبنان الضمائرُ في البراد. التعصب والتحامل. لبنان انتظارُكَ، خمسةُ أصدقاء يسافرون كثيراً، يندرُون. خمسةُ معارفَ لم تصادقهم جيداً. لبنان موعدُ مرةٍ كلِّ سنوات. يمضي العمرُ بلا انتباه. لبنانُ خوفُكَ وخوفُهم. مدرسةُ اللاشيء ومدرسةُ الدروس الصعبة. لبنانُ موعظةُ الجسد وسخافة الإنشاء. ليلُ البيوت. المدنُ بلا كهرباء. لبنانُ بلا معارضة، بلا لبنان. شيزوفرينيا الأحاديث اليومية. الميليشيا لكل الأزمنة وكل البيارق. لبنان الجوعُ الحقيقي والجوعُ المقنّع. لبنان التخمة الفاجرة. الفقراءُ يأكلون الحماسة. لبنان الذين سافروا لم يعودوا. لبنان عَدَمُ ذكرِ كلمة لبنان. لبنانُ تسميةُ العامِّ باسم الخاصّ. الكناياتُ الدائمةُ، لبَنان.

يا أيها الذي أحبك وأخافك وأخاف عليك. الذي أجهلك. تحملني فوق ظهرك. تتمسك بي وتقف عند حافة الهاوية. تريد رميَ نفسك أم ترمينا معاً، لا تستشيرُ. لبنانُ القياداتُ المبحوحةُ والمدافعُ

الصائحة. لبنان اهتراءُ القيادات من كثرة الاستعمال. قياداتٌ جديدة بلا ذاكرة. لبنانان بل ثلاثةٌ بل أكثرُ بلا لبنان.

ويا أيها الذي أحبك ويحبونك. لا أعرفهم. أُقدِّرُهُمْ تقديراً. وهم يستحقونك. لا يعرفون التعبير. يدافعون. ينتظرون. يُهجَّرون بالإكراه. يذكرون المنارات. في أهدابهم بقايا الضوء. لبنانُ حقيقةٌ غير موضوعية. منارةُ دمهم. حقيقةٌ إيمانية. نافورةُ الأوردة. نسغُ الأرض. صمتُ شيء لم يحترق بالنفط، بلعنة الكلام القابل للاحتراق. إيمانٌ بحداثة المشرق. مشروعُ تحديث مهزوم.

كان لبنانُ كيف يكون.

«إذا تغيرت الدولُ احفظْ رأسك».

لبنانُ شهادةُ التغيرات وإعلانُها ودسُّ الرؤوس فيها. لبنان رؤوسُ الجميع. لا يكونُ لا تكون.

حنّون

ثلاثيُّ المكان حَنّون.

يذكُرُ المبتدأ جيداً: فَتَحَ عينيه ليرى الشمسَ وأشياءَ الضوءِ، الترابَ الأصفر للعشبِ والشجرِ وترابَ طريقٍ ناعماً كالطحين.

الطريقُ ممتدّة حدباء وعلى صفحتها علامات: أقدام الحفاة وحوافر الخيل والبغال، وبصمات دواليب البوسطة الحمراء ذات التخاريم مثل كنزة العمة «ضعون». ورأى حنّون تحت الشمس عوسجة.

العوسجة مَنْشَرُ الغسيل، يفضّلونها لنشر غسيل المَرضى، وكثيراً ما تمزقت منها الثياب لكنهم يتفاءلون بها، إنها بديل لما يمكن أن يَخِزَ الجسدَ المريض، ولا بد من الوخز ليتم الشفاء.

في ظاهر البلدة العوسجة، تصل إليها من الطريق الناعم، تغرقُ قدماك في التراب الطحيني. وحنّونُ ما عرف إلا البياضَ على

رجليه، وحين داس الثورُ مرة على قدمِه، نَفَرَ الدمُ، واختلط الأحمر بالأبيض. طبشور مبلل بالمركيروكروم.

كانت أولُ نقطة دم لحنّون تختلط بتراب قريته، وكان الخليطُ يصلُحُ للرسم، وما رَسَمَ حنّون. قالت البرّاجة لأُمهِ إنَّ حنّون سيصير عظيماً، أية عظمة؟ لم يعرف حنّونُ أنها عظمةُ دمِه حين يختلطُ بالإسفلت، وحين الدمُ النادمُ يصيرُ سواداً دَبِقاً يلتصق بدواليب السيارات ويَرسُمُ على طريق المدينة الخائنة كنزة «ضعون».

خدّاهُ كالورد حنّونُ، وعيناه عنبٌ زينبي، وساقاهُ إرثُ سلفٍ ضائع، وسيطٍ بين الساحل والجبل، يمشي إلى البحر وإلى القممِ، يعرفُ آفاق البشر وأُفق الله ويعشق كلمات جدِّه «كن مع الحق». لم يرَ حنّونُ الحقيقة. لم يلمسْها. دافع عنها فإذا الحقيقةُ أكثرُ من حقيقة واحدة، وإذا حنّونُ في الحلم يضربُ نفسَهُ وتصطدم في عقله الحماسة بالندم.

لا تزال حاضرةً في ذاكرة حنّون تلك الصورةُ، يكادُ أحياناً يظنها وهماً. كان جدّه يشق صدر أرض جديدة ويزرعها بالبذرة البكر: لن نترك البوارَ يحيطُ بنا وسنحيي أرضنا. حمل حنّون الصغير إبريقه الفخارَ، وحملت الصبايا الغداء للفلاحين، كان ثمة شجرتان دهريتان وفوق كل شجرة عصفور. وضعت الصبايا صحافَ الطعام في الظل، وقبل أن يجتمع الفلاحون أطل من الوادي كائنٌ عار. إنسانٌ عارٍ. آدمُ الذي تخيَّلهُ حنّونُ قبل خطيئةِ التفاحة. شعرٌ طويل مجعّد. جسدٌ كحصان مشرئب، وأعضاء وسيطة تتمايل كبندول ساعة الحائط.

نفرت الفتيات ودُهِشَ الرجال. ما صدقوا ثم صدقوا، واختبأ حنّون في الشجرة. لحق الرجال بالإنسان العاري وأمسكوا به، لم يتكلم. كان أبكم. اكتفى الرجال بالعمل حتى الظهر، لم يتناولوا غداءهم، عادوا إلى القرية وقد غطوا العاري بقمصانهم.

إلى الساحة ثم إلى قبو الحاج حسين. كان الجمعُ يتوافدُ من القرى ليشاهد العجيبة. لم يتكلم الرجل العاري، لم يلائمه الطعام والحنان. ومات بعد ثلاثة أيام.

*

ثاني مكان لحنّون:

قالوا إنها المدينة. ليست كما قرأ عنها في كتب الأخلاق والمدنيات: الشرطي ومسامير الشارع والشارات الضوئية والمشي بين المسامير. كانت ساحةً تضج بعربات الخضار وعربات السحرة والأفّاقين، وبالتلاميذِ والعاطلينَ من العمَل وحَمَلةِ المسدسات والمنشورات.

في الليل يُطلُّ حنّونُ من عُلْبَتِهِ الحجرية ليرى الحراسَ المرتشينَ ولصوصَ الدرجةِ الثالثة والمومساتِ المتدرّجاتِ وتلاميذَ المدارسِ الليلية. ويرى حَنّونُ إلى النوافذ مطفأة ومضاءة، ويسترقُ النظرَ إلَى أطراف النساء البيض، ويؤلفُ في خيالِهِ تكويناً للمدينة تفحّ منه الخطيئة.

عند الصباح يلتقي حنّون بالقمامة الطازجةِ مرمية عند أبواب البنايات، وبالمنشوراتِ الطازجةِ في واجهات محال تبيعُ كلَّ شيء.

كان حنّون مأخوذاً بما قالوا إنهُ المعرفة، وكان يلتقيها في الحروف الخضر والحمر والسود. ويتثقف حنّون من هنا وهناك وهنالك. يتجول في غير مناخٍ فكري. يمارس الطقسَ بعد الطقس، ويغتربُ ويرى أنهُ شاهد يوماً ما يشبهُ القيامة:

«يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً. إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور» (قرآن كريم).

غرفةٌ فوق السطح ومكتبةٌ وحديثٌ يطول. تسقطُ الأفكار من الشبَّاكِ الصغير كأعقاب السجائر، مَنْ هو فوق يرمي إلى تحت. كل الأشياء والأفكار تتبع قانون الجاذبية. الأرض تحضن الجميع، والجميع يسقط أخيراً كتفاحة مقطوفة أو كتفاحة بلغت نضجها.

لا حبَّ في المدينة. حنّونُ أَحَبَّ فتاةً حين عاد إلى القرية ليوم واحد، وحين أتت الفتاة إلى المدينة زرع حنّون في قلبه داليةً ووضع فيَ جيب قميصه كأساً من الماء، هكذا ليبقى الحبُّ وتعرِّشَ الدالية.

أكبرُ تجمع في وطن حنّون هو العاصمة، كل فرد فيها يعيش وحدته. المدينة تكشف فرديتك وتذيب روح الجماعة. فكَّر حنّون: مواطنوه يحتالون كي يحفظوا جماعيَّتهم. يقطنون كلُّ جماعة في حي. يصطافون عند مقابر جدودهم. يزرعون في كل قلب دالية كي يعرِّشَ الحنان القديم وتفشل مخططات المدينة.

رغماً عنه صار فرداً، صار يفكر وحيداً. ذبلت داليته. ويصرُّ حنّون على رحلته الفكرية. يتحولُ إلى مكتشفٍ ويدخل المكان الثالث

الشاسع، كوكبَ الفكر ومحيطاتِهِ وغاباته الساحرة القاتلة.

*

ثالث مكان لحنّون:

حنّون يكتشف، يعتاد، وبعد كل اكتشاف خيبة. كل جواب يزيد من حجم السؤال، وحنّون الفضولي يريد أن يعرف. تدور فيه المعرفة ويدور فيها. تعود الأمور إلى بداياتها، ويعرف حنّون أن صدمة الولادة زعزعته. ظنها ولادةً، فإذا هي صدمة الخروج من الحقيقة الأولى إلى الأسئلة اللامتناهية: بدأتْ مع دواليب البوسطة الحمراء وجماليات كنزة «ضعون» ولمّا تنته.

الواقفون مرتاحون. راضون في المكان الواضح. يفترشون المكان الذي اكتشفوا، ويلتحفون قطعة هندسية محدودة من السماء.

لم يقتنع حنّون بالوقوف. أراد أن يعود. الذينَ ربّاهم حملوا حراباً ثم تطوروا. حملوا بنادق. حنّونُ مفكّرُهُم القديم. المفكر في الاقامة الجبرية أو المفكر الممنوع من مواصلة التفكير. وهم مرافقوه أو حراسه أو سجانوه. هذه الأوصاف سيان. حنّون يتحرك كعهده ويضع نظارة على عينيه ليخبئ القلق وبعض الدمع.

يحسُّ خيبةَ الناس. يعرف ماذا يريدون. حنّون العظيم المكتشف وحنّون الممنوع من الاكتشاف. وفكّر حنّون أن الاكتشاف حرية، وهرب من الصورة التي أنكرها.

بين الصدمة والموت لحظات، تكلم فيها حنّون. لم يحفظ الطبيبُ ما قال. والطبيب نادم لأن حنّون قال كلاماً لو وصل إلى

الناس لأعطاهم أن يكتشفوا أنفسهم.

من صدم حنّونَ في الشارع الرئيسي؟

حنّونُ الهارب: ليس مع الفئات أ، ب، ج، د. ليس ضد الفئات أ، ب، ج، د. والفئات هذه تتقاتل.

حنّون الهارب مات. لا أحد يشمتُ به ولا أحدَ ينعاه مناضلاً بطلاً. قتلتْهُ منظمةُ «أبجد» لأنه أراد مواصلة التفكير والاكتشاف، وبكى لموته من بدأوا، بالتجربة والخطأ، يعرفون أنفسهم.

كان حنّون يتجول في شارع المدينة الرئيسي، صدمتْهُ فكرةٌ آليةٌ ذاتُ حروفٍ مسنّنةٍ فمزّقت أضلاعَه.

ماتَ حنّونُ، وحصل من تبقى من أهله على وثيقةِ وفاةٍ من دوائر قيد نفوسٍ محروقة.

نحو الكلام

أَحقاً يا سيدُ أراك في التَورية. رأيتُك عند سيف المتوسط جسداً مديداً علا رأسك تاج الشوك وما استطعتُ تبيان المعالم. قال بحارةٌ بعيدون التاجُ جنوباً وقال بحارة أبعدُ إنه شمالاً وما أكدوا كان جسدك غيباً تلمع خلاله بقعُ دمك الطليل، عيناك إلى فوق وقد سمّروك عند السيف عشراً لم تتم وما سمحوا ليوسف يحملك، وقال بيلاطسُ إنك ببطء تموت وغسل يديه للمرة الألف، قال سوف يعتزل عند تمام موتك أو يموتُ قبلك ولا يشهد.

سمّيتُكَ لبنان وما سمّيتُ بيلاطس.

سجنوا مجدك في الهيكل وكنتَ تسمع قلوبهم تخشخش فيها العملةُ الذهبية تخدش سمعكَ وسمعَ الله، وكان الذي سلّمك «أعطاهم علامة قائلاً الذي أُقبِّلُهُ هوَ هوَ» وقبّلك كما وقْعُ المعدن على

الخدّ الناعم، وقلتَ هما قطعتا عملة لا شفتان وما لجأتُ الى التورية حين رأيتُها قبل طاولة الكتابة صورَتُها بيني وبين صورتك على الورقة وما جرؤتُ أنظرُ الى وجهها قدّسته الآلام ورسَمَ الانتظار هالته، كان يومَ الجمعة والأمُّ الحزينة لها اسماءُ عدة في بطاقات الهوية وأبناءٌ قتلتهم الحرب هنا وهناك وهنالك ولم يمنعني وجهُهَا عنك بل قادني إليك وجعلك تورية جديدة أخاطبُ آلامك.

سمَّيتكَ لبنان وكانوا يغادرون الهيكل يبحثون عنك وصورتُكَ على الخوذة وفي أخمص السلاح القاتل وابتكروا لك أقراناً في سائر الهياكل وكنتَ وأقرانَكَ تموتون عند الطلقة وعند وصول الطلقة ومعكم يموت المستضعفون.

المستضعفون في الملاجئ ينتظرون أقدارهم أو وجدوا اقدارهم في صناديق السيارات، في كوم القمامة تحت الإسمنت الثقيل وفي الفضاء تخترقه اسنان الحديد.

ويا سيدُ تداخلتِ الخطاباتُ بين المحاريب وصهوات الدبابات وصار كلامُ الصدّيقين شواهدَ للقتل، كلامُ الضحايا ذرائعَ للقتلة، والقبلاتُ اليوضاسيةُ حبّاً سائداً فوق جسدك المثخن، وموجُ المتوسط ملحاً يضاعف الألم.

يأسرنا الكلام نحبسه في الوجدان لئلا يدخل خلخلةَ المخاطبات يا سيدُ، فما أَحدٌ يسمع سوى صدى ما أَسْمَعُوه، ويكاد

كلامُكَ يضيع في خشخشة الهياكل يحبسونَه عن سمع المقهورين ويريدونه زينةَ الدنيا.

وعفوك يا سيدُ في يومك رأيتُ آلامك آلامنا وشاحاً خلف وشاح وسمعتُ صوتك منادياً وذراعاك مفتوحتان على بني البشر وبي عَيٌّ يا سيدي أخافُ يلصقُ كلامي على هيكلٍ، أيْ على دبابة.

العمودي

هكذا! لقد تغيّرت للتوّ.

كانت المقدمات تهمس ولم تجهر كي تصدّقها.

صرت تعلو وتهبط، تنتقل عمودياً، تعلو إلى نفسك ومنتهاها وتهبط إلى جسدك والآخرين.

الرجلُ العموديُّ أنت. تعلو، يعلو بك العمر. وترى البحر يتموج في مكانِه، الأرض تتلون في ثباتها، والضوء في دائرته البطيئة إلى الأبد.

بالأمس كنتَ. غداً لا تكون. أنت زبدُ الموج ولون الأرض والعيون التي ترى.

تنخفضُ. تُخفضُك التفاصيلُ، الهمومُ، الانتصارات والهزائم وما بينهما من الخوف: الماء في الكوب، والدخان من الرئتين، والحبر من القلم، والكلمات من الرأسِ، من الخطبِ ومن بقايا الأحذية.

صاعداً وهابطاً، متنسكاً وباحثاً عن مستقبل، والعمر سيف فوق الرقبة، عسل في فوهة البئر.

صعوداً إلى الرهبنة والتراب، هبوطاً إلى الحبيبة والموسيقى.

أيها اللون الذي يتدرج من البياض إلى حدود السواد، أيها الوجه ذو المعاني.

صعوداً، هبوطاً، حتى دوار الرأس ودائرة الكلام.

سلة الفواكه والشمس حاضرة والبحر يعلن زرقته والنسيم يتخلل الجُزُر والبيوت البيضاء، والماءُ يبلّلُ رمل الذاكرة: هدوءاً هو النوم العناق، وهو خفقة الجسد تعلن علويتها للانخفاض الأخير.

صاعداً وهابطاً: فردٌ وشعبٌ. زبدٌ وبحرٌ. لونٌ وأرضٌ.

كانت الريح تتوجع وتضرب بسياط الانتقام. الأوراق على الأرض، والخريف في عنفوان الصيف. لا يزال في الأوراق نسغُ الأخوّةِ وعهدُ الماء السرّي. تجمعت مذعورة عند الجذع، وأوراق ضللتها الريح إلى مغترب الرمل.

أيها الجذع أوراقُهُ من تحت. أيتها الشجرة المقلوبة.

صاعداً إلى المنفى والنكران. هابطاً إلى التفاصيل والآمال ذوات الشعاع. صاعداً هابطاً حتى دوار الأفكار والكلام المستعاد.

هكذا، لقد تغيرت للتوّ.

لم تنتبه لهمس المقدمات.

من مكان بعيد

ليس من مكان بعيد. تنقلك المسافات إلى الأبعد فتبقى في مكانك.

لا يصلح المحاصر للرحلات فالحصار في الدم، والماجستر اللبناني أسير لعبة لبنان، يراها في غابات البلاد البعيدة كما في غابة الحجارة بيروت وفي غابة كلام لا يتغير، يتركّب ألعاباً.

الماجستر اللبناني مكتفٍ بمكانه، حيث حطام الأفكار وعريها، وحين يسافر يصل إلى بساطة وانفراج.

لم يُعطَ كياناً ليتعرّف إلى كيانات أخرى، وإنما أُعطيَ ان يكون نهراً وناراً، وما بينهما من اللمعان والموت المدوّي.

لذلك يصاب بالنعاس في بلاد الايقاعات البطيئة.

*

هل يحتاج الجلد إلى ترجمة؟

ليس من قاموس لترجمة الجلد. كل بشرة في لغتها، في حسيتها، وفي ملمسها الخاص.

جلد ناعم. وافر النعومة حتى لا تستقر عليه الأصابع. جلد واسع. منتهاه يأتي كرفّة عين. جلد بلا مسام. جلد بلا خفق، للنظر من بعيد. جلد بلا عروق، بلا حرارة. جلد غريب. جلد غير حاضر وغير مفهوم.

لا حبّ خارج المكان، والحبّ ليس عالمياً. دولة صغيرة لجسدين. دولة تحتاج إلى ماض، ولا حب خارج تاريخ خاص للحب.

*

في مقهى المكان البعيد: منظّرون وهاربون وطهرانيون ومراهنون وعابثون.

وفيه: موعودون ببطل يغير كل شيء فيعودون إلى كنفه. وفيه كل الناس عدا الشعراء.

ولدى العودة من المقهى: شاعر يتسول بإهداء قصائده المخطوطة إلى العابرين، ومع المخطوطة حجة المتسول: ثمن تذكرة القطار ليعود إلى قريته.

عن المدينة

عن المدينة أنها بحث وليست اكتفاء، وأنها مستقبل وليست ماضياً، ذلك أن ماضي المدينة في متاحفها لا في شوارعها وبيوتها ومكاتبها.

وعن المدينة أنها حركة وليست سكوناً. المدينة أسئلة لا أجوبة. لأن السؤال بحث وانفتاح على الغريب الأبعد وتشريع أبواب القريب الأقرب. ولأن الجواب سكون. الجواب موظف متقاعد يجلس في بيته، في ريفه، يراقب تبدلات الفصول أو يستعيد أوراقه القديمة ببعض اعجاب.

وعن المدينة أنها أفراد وليست جماعات، فالمدينة أن تسكن في بناء ولا يراقبك الجيران، أن تقفل بيتك متى تريد وتفتحه حين ترغب. وفي المدينة وحدها يكون الفرد ويكون معه اقتحام المعرفة. المدينة مغامرة الحياة والكشف، ووحده الفرد يغامر، لا تحده الجماعة. والمدينة ليست جماعات لأنه حيث الجماعات تكون العائلات أو الأخويات ويكون الحرم واختفاء السؤال.

وعن المدينة أنها المكتب والمصنع والمتجر، وأنها المقهى، وأنها حركة الليل والنهار، وأنها القانون المكتوب لا الأعراف. وعن المدينة أننا غادرنا المدينة منذ كانت حربنا حرب جماعات الأجوبة، أو أنها غادرتنا، وسافر السائلون منا إلى حيث يتاح السؤال، وأخفى الباقون أسئلتهم حتى الموت غيظاً في الخريطة الجديدة.

استطاع اللبناني في ما قبل أن يحل إشكالية السؤال والجواب، المدينة والقرية، فكان له من دون العالمين، أن يعيش السؤال في بيته المديني ويعيش الجواب في بيته الجبلي، فكل لبناني كان نصفه في بيروت ونصف في الجبل. ولبنان كان صغيراً، ودورة الحياة فيه كبيرة. يحضر جواب اللبناني في جبله، فإذا هو المستأنس المسترخي، ويحضر سؤاله في بيروت فإذا به يطاول أرجاء العالم أفكاراً وتجارب واقتحامات. اليوم لا مدينة، واليوم لا قرية، ولبنان جماعات مطاطة وأجوبة شمولية. لا مكان للفرد.

نحيا الحذر في المكان. لا نشبه ساكنيه. والقهر أن نتشبه بساكنيه. أي أن نسكن في الجواب، خارج معنى المدينة أو في حطام أسئلتها.

عروش الجمر

(الى نقولا دانيال)

سلامنا حكاياتٌ في الكتب، وفي السهرات ترويها اللواتي صرن جدّات بلا احفاد. ثمة احقاد تنمو. يَخشُنُ عودُها. ويتعهَّدُ الأحقادَ بستانيو جحيمنا المهرَة. يتدبرون أمورَ الغابة الشيطانية ويبنون في آخر دغلها تلك القصور العالية، من خشب أسود، من حجارة الحريق، وفي داخلها عروش الجمر.

يَختطُّ من جديد تاريخُ الاختلاف، كل طلقة صفحة، كل جرح نافذةٌ مخلعة، بابٌ يُفتح على نار ودخان.

يختطّ تاريخ الاختلاف ويأنس المدوِّنون بعملهم الفظيع. الناس تفرقوا. البرهانُ كتابُ التاريخ الجديد، النارُ والأحزان، تبادل التهاني وتبادل الهلع. يتأسس الاختلاف في آخر نيسان القاسي وفي أي نيسان آخر.

الرجل المريض وسائقه الصحيح على الطريق البحري. كان المدى فارغاً إلا من بيوت صامتة ومن أفق معدني. النوافذ الألومينيوم والبحر الألومينيوم وكذلك السماء. البيوت الموصدة كلها موصدة. لحظة ما بعد رحيل طويل أو قبل عودة مستحيلة. بيوت بلا ناس، وعند صفحة الصمت المعدني، ثلاثة ألوان، ثلاث حركات:

في البيت تحت الطريق طفلة تلبس الأحمر وتتحرك في أرجوحتها. وفي بيت فوق الطريق واجهة دكان صغير. الصحف والمجلات معلقة كالغسيل وقد أزهته الشمس. وفي العزال عند المفترق العريض عجوز يعتني بشجرة صغيرة.

الرجل المريض وسائقه الصحيح بعد أربع وعشرين ساعة يرجعان على الطريق البحري إياه. البيوت تضج بالصخب والطريق بالسيارات والعربات العسكرية. كان مسلح يرقص فرحاً. آخر يعزف على الترومبيت. ثالث يوزع العطور والزهر. عند المفترق البحري شجرة صغيرة وحيدة، والبيت الذي تحت الطريق يتأجج بالنار والدخان. أشياء البيوت لم يكتمل احتراقها بعد. كان الماء حياً في خلايا الخشب تحت دهان الأبواب. تصرخ الأشياء في حريقها كما الكائنات الحية.

عند مفترق آخر أصوات الحريق وحطام الزجاج. البيوت تصرخ في حريقها، وعلى طريق الإسفلت حصان جميل القوام يمشي خبباً بين السيارات وعربات الجند، ثم يعدو سريعاً «مكرٍّ مفرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معاً»، كأنه نفسه. حصان حقيقي وليس استعارة لتكملة

الصورة. كان الحصان يعدو لا يعرف إلى أين، ثم ينعطف في الطريق الترابي الضيق نحو الجبل.

والرجل المريض لم يصب شفاء. قام برحلة الأربع والعشرين ساعة. أصاب قبساً من الفرح بسلام أهله وجيرانه، وعاد يحمل أحزان سائر الناس. لاحظ الطبيب ان كل مدفع ينطلق من لبناني على لبناني يفاقم جروح معدة المريض، ويزيد من قتامة وجهه ومن خجله الوجيع.

حين رجع المريض إلى بيروت، كانت المدينة عند مواعيدها بالشروخ، وكان خط الجمر الذي رسمه الراسمون يتوهج، والناس في بيوتهم، في علب الحجارة الشائخة، لا تحميهم، يستسلمون الى المصادفة تحيي أو تميت.

رأى الرجل المريض ابنه يقرأ كتاباً عن عالم الحيوان، ومرت عيناه على مقطع في الكتاب: «يعمد الصيادون إلى اختيار مكان في البرية مسدود من جهات ثلاث، ويرسمون في الجهة الرابعة ممراً قابلاً للإقفال، ثم يبدأ الصيادون في مطاردة جماعة الفيلة وتوجيهها إلى المصيدة. وحين تصل الجماعة إلى الممر يتقدمها قائدها (قد يكون فيلاً صغيراً أو كبيراً)، تدخل إلى المصيدة فيقفل الصيادون الممر. وعندما تدرك الفيلة مأزقها تعمد إلى قائدها فترميه أرضاً وتركله بقوائمها وتنخره بأسنانها حتى يموت».

تكوين شرْقي

1 - الوجْه

حمل الرجل معياراً قديماً وقاس به الصدق والكذب، المعرفة والجهل، الإخلاص والغدر، الجدارة والادعاء. كان المعيار يشير إلى الجانب السالب.

وفي واحد من صباحات الرماد أفاق من النوم. تفقَّدَ من نافذته التراب والسماء ونُذُرَ الآفاق.

التفت إلى المرآة يتفقد وجهه. لم يجد أحداً!

لم يكن الرجل مخبولاً ليبحث عن وجهه قرب السرير أو على المشجب العتيق أو في غرفة المكتبة. لا بد أن خللاً مستحيلاً حدث للمرآة.

سوّى الرجل وجهه وشعره كيفما اتفق، وقصد المقهى حاملاً مأزقه الجديد.

تخلّى عن الرجل خيالُهُ المعهود، لم يعد كما في السابق يتصور أنوفاً طويلة للفضوليين، وجوهاً للمحدودين مغطاةً بلافتة موحدة، عيوناً للمنظّرين ترى ولا تُرى، آذاناً للخائفين تترقَّبُ في كل لحظة انفجاراً.

إلى طاولته جلس والصَّحْبُ لمَّا يأتوا بعد... حضَّرَ نفسه للتجربة الجديدة. سيذهب إلى المغسلة ويدحض عند مرآتها أوهام الصباح.

ها هوذا يمشي وئيداً، يستجمع ثقة بالعلم والمنطق فقدها من زمن. فتح البابَ مُسْبِلاً جفنيه كعروس خجول، تردد قليلاً، ثم فتحهما فجأة على المرآة. لم يرَ أحداً.

تصبَّبَ العرق من جبين الرجل، وخالجه إحساس مَنْ يقفُ على عتبة الجحيم. استند قليلاً إلى الجدار، وعاد يجر الخطى نحو طاولته.

لمّا يأتِ الصحب بعد.

تنفّسَ الرجل قليلاً.

تنسَّمَ بعضاً من هواء القبور الذي تحفل به المدينة.

ولجَ الرجلُ عالم الأفكار بتوجّس. لم يسمح لنفسه بالذهاب بعيداً. تلفّت حوله يستأنس بوجوه الآخرين. إنه ضحية خطأ ما، في هذه المنطقة... سقط ضحايا عديدون وكان سقوطه على نحو فريد.

التفت نحو الرصيف. رأى من بعيدٍ صحبه الأربعة متوجهين نحوه. تطلع الرجل مليّاً، وحين تأكد وقفَ فجأة كالمصعوق.

تحطم فنجان القهوة على الأرض.
مشى الرجل يلاقي صحبه على باب المقهى.
رأى عينيه في وجه الأول،
وجبهته في وجه الثاني،
وفمه في وجه الثالث،
وخديه وذقنه في وجه الرابع.
صرخ الرجل: أعيدوا لي وجهي الضائع.
سمع صوتاً يناديه: أيها الرجل لـِمَ لمْ وجهك الموزَّعَ على الوجوه.
... وافترق الرجل عن صحبه وتفرقوا عنه.

2 – اللسَان

ينظر الرجل من زجاج المقهى. إنها الثامنة صباحاً، رجالٌ يتحركون على الأرصفة باتجاهين مختلفين. يسرعون الخطى نحو أعمالهم وفي عيونهم مزيجُ قلقٍ وأمل.

شرب الرجل قليلاً من فنجان القهوة. نفخ دخان سيجارته وفكّر: لو أوقف شرطي هؤلاء الناس وسألهم عن أعمالهم لسمعَ أجوبة متنوعة: مستخدمون في شركات ومصارف. طلاب جامعات. موظفون في إدارات الدولة. أصحاب حوانيت. بائعون متجولون.

وفكّر الرجل: لو أنه في عداد الرجال فبماذا سيجيب:

- مهنتك؟
- لسان.
- لسان ماذا؟

ويجيب مستظرفاً:

- لسان الحال.
- حال مَنْ؟
- لسان حالهم.
- مَنْ هم؟
- ليس أنا "إنهم الآخرون".

ارتشف الرجل القهوة. إنه جالس إلى طاولة في المقهى. الرجال على الأرصفة يتحركون ببطء. ليس ثمة شرطي، وأبواب الرزق كسرت قبل أن توصد.

إنه جالس في المقهى. لسان. يتحرك في الفم. اللهاةُ ترخِّمُ الصوت. واللسان ينظم الألفاظ.

لسان. يشرح الفكرة الصحيحة. يعيد صياغتها بالأساليب اللغوية كافة. يفكر عن الناس. وحين يُصدرُ الفكرةَ إلى الآخرين، غالباً ما ينسى أن يُقنع نفسه بها. ما هَمَّ؟ ولماذا يقتنع؟ عليه فقط أن يُقنع الناس. إنه هو. اللسان.

شرب الرجل من كوب الماء. إنه مهمٌّ جداً ويمتلك مهارة نادرة. فكّر الرجل بليلة الأمس: كان يجالس زوجته وأولاده. الأولاد يتحدثون بحرية عن أشياء البيت والطريق وحكايات الجدّة. الزوجة

تتحدث عن مشاكل المعيشة وتصور بطلاقةٍ ودرايةٍ أزماتِ عائلات الحي. ووحدهُ الرجلُ، من دون أن يدري، أخذ يبرِّر. يُبيِّن وَهْمَ الواقع ويبرهنُ حقيقة الكلام.

هو الرجلُ اللسان في صبحِهِ والمساء، في العملِ وأوقات الراحة وفي حميميةِ البيت الزوجي.

نفخ دخان سيجارته. تراءى له كم أن لسانه كبير مثل حوت، وتراءى له أنه سيموت كما يموت حوت خارج البحر في مسطع الشمس.

شرب الرجل من كوب الماء. إنها التاسعة. رأى رفيقيه يأتيان، تماماً وفق الموعد.

ثلاثة صحون من الفول أيها النادل. وابتدأ الفطور الغريب. ثلاثة ألسنة تحرك اللقم في الأفواه، تحرك الكلام، ترتب مخارج الحروف وتستوفي شروط الفصاحة.

ثلاثة أكواب من الماء. إنها العاشرة تماماً والرجال الثلاثة يغادرون المقهى نحو الساحة القريبة. كان ثمة جمهور غفير، وعبر ساعتين دَوَّتْ في المكان أصواتٌ جهيرةٌ وكلمات.

فكّر الرجل باعتزاز: كم هي رائعةٌ مهنته. اللسان.

3 – العَيْن

يتحلقون حوله ثم يتبعون.

إنه العين.

العين في القاموس هو عضو النظر وهو البياض أو الرموش الحارسة. هو الرجل البارز بين أقرانه، أو هو نبع الماء أو المنطقة أو المال، وهو الجاسوسُ يراقب الآخرينَ... فليذهب القاموس إلى الجحيم.

كان الرجل يعمل لساناً فارتقى. صار عيناً يقرر ما ينبغي أن يفعل الآخرون.

العين يعرف متى يحضر ومتى يغيب... حين يجيءُ إلى الناس يتحركون ويتكلمون. يحدِّدُ لهم الأهداف فيبدأون بالسعي.

وحين يغيب العين تبطُلُ الحركة. تستقرُّ الألسنة في الحلوق وتستكين الجماعة في النعاس.

صار الرجل عيناً. وهو في مقامه لا يحتاج أصدقاء أو مستشارين. علاقته مباشرة بالدساتير، وهو صاحب التفسير والاجتهاد. يقبض على اللحظة التاريخية. يقضمها كتفاحة ويعرف طعمها. وحده دليلُ الحقيقة ومن رؤياه إشراقةُ المستقبل.

والعين لا يترك فرصة إلا ويدلّ فيها على ماديته. إنه بشر مثلِ الآخرين، يهبط إلى عالم المهتدين متنكراً، يتجول في الشوارع ويستقل

عربات النقل العام ويجلس في المقهى.

جلس العين في مقهى شعبي. تفرقه عن صورة الجدار قبعةٌ وشاربان ألصقهما على شفته. ولأنه مألوفٌ كان يبالغ في التنكر.

حاول العين أن يسمع ما يثير. لا شيء، فالعامةُ ارتضتِ الحالَ واعتاد أفرادُها أن يسلِّموا أمرَهم لرأس الإبرة، العين. وحده يرى، وقد رأى صواباً، فلمَ المشاركة؟

تنقَّل العين في أمكنة عدة متنكراً... وأصبحت جولاته مملة. كان في ما مضى يسمع نقداً، يرى بشراً ينظرون الى الأمور بطريقة مختلفة. وقليلاً بدأ هؤلاء يختفون أو يكفّون عن حشريتهم. قالوا: كفانا اهتماماً بالنظر إلى بعيد، ثمة العين ينوب عنا.

ازداد العين توحداً، وبدأت نمالُ الوحشةِ تدغدغ أعماقه. كان إذ يتنكر يطلع على رؤى عيون صغيرة لم تطلْها سلطَتُه. وها إن العيون تنطفئ. الظلمة تعمُّ الوطن والجميع يستضيئون بمصباحه.

نجح العين في رصِّ الصفوف خلف رؤيته، وفَرَض هذه الرؤية حتى انطفأت سائر العيون.

ولكن، ماذا عن التحكم بالماضي؟

كم هو مؤذٍ الماضي بحقائقه النافرة الجاهزة. ما حدث قد حدث، والعين لا يستطيع فرض تفسيرٍ للتاريخ الحيِ القريب، والأدهى أنه لم يتمكن من مراقبة ذاكرة الناس: حين يأتي ليلُهُمُ الليليٌّ أو يطلُعُ نهارُهُمُ الليليُّ يلجأونَ إلى الذاكرة. تلك أفعالٌ لا يتحكم فيها القانون ولا يستطيع منعها بنصٍّ واضح.

الجماهير تتبع العين أنّى يريد، بيد أن لمحات من اللامعنى تظهر على الوجوه. الأيدي تنتج بآلية. صار الناس واضحين أكثر مما يجب، بسطاء، وخلف العين يسيرون.

ذات يوم قام العين بجولة تنكرية. في المقهى أحسَّ بأن الناس منظمون وفق حرفية القانون. لا أحد يتكلم إلا في الشؤون اليومية المعتادة. الأحاديث موضوعها الحاضر، فالمستقبل للعين والماضي للنجاوى السرية.

دار الليلُ الليليُّ والنهار الليليُّ دورتهما واستعاداها برتابة قانون الطبيعة. وفي صباح أسودَ مات العينُ.

انطفأت نجمة البلد الوحيدة. المستقبل انطفأ مع العين، والحاضر مسرحٌ يتداعى، والماضي ملجأ سري.

فُقئت العين في صباح أسود. تحلق الناس حول الظلمة ثم اتبعوا الذاكرة.

4- الحِذاء

كان حذاءً ضخماً ينتعله المحاربون.

وكان حذاءً مطواعاً، حذاءً من مطاط مناسباً لكل المقاييس... الأرجل تفنى وهو من طواعِيَّتِهِ يبقى. لكنه ذات يوم يتشقَّقُ، يُرمى بعيداً.

وعند الشواطئ مقابرُ لأحذيةٍ، لا يُعرف أين كانت. في أقدام الغزاة أم في أقدام المقاومين؟

المحتويات

صدر للشاعر

بابل العصر (شعر)	دار النهار ـ بيروت 1978 طبعة ثانية 1981
بيان الخوف (شعر)	دار الشروق ـ القاهرة 1984
«عروش الجمر ـ عن الثقافة والإنسان في حرب لبنان» (مقالات)	دار التنوير ـ بيروت 1986
«سلاف الأفكار في عترة المختار» ـ قصائد لشعراء من ولاية بيروت قيلت في أحمد باشا الصلح ـ تحقيق وتقديم	شركة المطبوعات للنشر ـ بيروت 1989

بيروت عاصمة
عالمية للكتاب



Beirut World
Book Capital

